تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

معارضون للسياسة الأميركية الأوروبية نحو الاتحاد السوفياتي يقولون :

- أموال العالم كله عاجزة عن أقالة عثرات الاتحاد السوفياتي .
- لا تناقضات بين محافظين وإصلاحيين في موسكو بل مسرحية ألفها ووضع مشاهدها المحافظون .
- الغرب يشجع الإصلاح في جنوب أفريقيا بغرض العقوبات ، ويشجع الإصلاح في الاتحاد السوفياتي بتقديم القروض .
- الغرب يتغاضى عن تصرفات حكومة غورباتشيف غير الديمقراطية ويوافق على التضحية بأصحاب الحقوق المشروعة .
- تعاون الغرب مع السوفيات نابع من خسوفه من شيوع اليأس عند حكام موسكو .

الحلقة الأولى

لا يزال غوربا تشيف الرئيس السوفياتي لغزاً غامضاً عند كثير من المهتمين بما جرى ويجري في الاتحاد السوفياتي .. وفي مقدمة المفكرين السياسيين الذين لا يزالون يقفون من غروباتشيف موقف الحذر والريبة السيد فلاديمير كوفسكي الذي تعتبره الصحافة الفرنسية بخاصة واحداً من أشد النقاد السياسيين الذين طالما اتخذوا مواقف سلبية من النظام السوفياتي.

والسيد بوكوفسكي يعتبر من أشهر المنشقين على حكومات موسكو بعد سولجانتسيم . ذلك أن كل موقف يتخذه من مجريات السياسة السوفياتية يعتبر حدثاً في ذاته .

ومما يلفت النظر أنه التزم بالصمت منذ ظهور غورباتشيف زعيما لبلاده عام 1985م . لقد كان يتابع الوقائع السياسية مراقباً ومحللاً ومقارناً في ضوء معرفته الواسعة بالرجال المسؤولين وبحقيقة ما يجري وراء الستار .

وأخيراً خرج إلى الناس بكتاب لعب دور القنبلة في الأوساط السياسية الدولية . وقد قدم هذا الكتاب بالعنوان التالي : " من اليوتوبيا إلى الكارثة " أخرجته دار النشر الفرنسية " روبير لافون " ..

وقد أعلن هذا الكتاب حقيقة المواقف التي اتخذها بوكوفسكي من السياسة الغورباتشيفية بكل وضوح .

****

أخطر ما في الكتاب أن بوكوفسكي يطالب الغرب بالإمتناع عن تشجيع مسيرة البيريسترويكا لأنها لا تستطيع أن تجنب الإتحاد السوفياتي من التعرض للانهيار والإفلاس . وهذا الموقف يسدعي بطبيعته الكثير من الأخذ والرد . ولئن صح ما ورد في فصول كتابه فإن هذا يعني أن العالم سيتعرض لأخطار ردات سياسية وعسكرية واقتصادية لن تكون في صالح الأمن الدولي .

وإذا كان لرأي بوكوفسكي وزن خاص فلأنه ممن عايشوا التجربة الشيوعية وعرفوا الكثير من أسرارها الداخلية. على أنه ليس المفكر السياسي الوحيد الذي ينظر إلى سياسة غورباتشيف نظرة متشائمة فقد سبقه إلى أعلان مثل رأيه رجل لا يقل سعة علم وغزارة تجربة عنه هو رئيس جمهورية فرنسا الأسبق فاليري جيسكا رديستان الذي طالما أعلن عدم إيمانه ببردى السياسة التي تسمى إصلاحية في الاتحاد السوفياتي . وكذلك الشأن بالنسبة لوزير خارجية أميركا الأسبق كيسنجر الذي تنكر لرأي المتفائلين . ثم هناك وزير الدفاع الأميركي الحالي الذي عارض فكرة تقديم المساعدات المالية على أساس أنها ليست الحل الناجح . بينما اتخذ رونالد ريغان الرئيس

الأميركي السابق وشاركته المرأة الحديدية السيدة تاتشر موقفاً ايجابياً . حتى أن السيدة تاتشر اعتبرت غورباتشيف رجلاً فائق الجرأة بل كادت تصفه في مرتبة الأبطال .

****

لماذا صيف وشتاء على سطح واحد ؟

سؤال تردد في كتاب بوكوفسكي : " لماذا نشجع الإصلاحيات في أفريقيا الجنوبية بتوقيع العقوبات بينما نشجع الإصلاحيات في الاتحاد السوفياتي بتقديم القروض والمساعدات ؟

بعد أكثر من أربع سنوات مضت بنشاط عنيف أذهل العالم تحت إسم " ببيريسترويكا " فإن على القادة السوفيات أن يواجهوا الكارثة : فاقتصادهم لا يزال أقل انتاجية ، والعجز في الميزانية العامة يتزايد ، وأرتال المستهلكين أصبحت أكثر طولاً ، والسلع أصبحت أكثر ندرة . والثابت أن نصف الاجراءات التي تتمثل في إصلاحيات غورباتشيف المتدحة جداً ، وفي عهده الجديد " ينوديل " التي يقصد بها إنفاذ الاشتراكية ، لم تنجح في إيقاظ الحماسة الشعبية التي من المنتظر أن تحسن الريع المنشود .

****

وهذا يعني أن ما هو غير كاف في الميدان الاقتصادي يمكن أن يعرض للخطر سياسة القادة الحاليين . إن الامبراطورية السوفياتية تتعرض اليوم لدوامة . فمن البلطيك إلى القوقاز، تنهض الشعوب التي كانت " أسيرة النظام السابق " مطالبة باستقلالها الوطني . وحتى في روسيا نفسها ، كانت الانتخابات الأخيرة رغم ما أحيطت به من الرقابة والتضييق قد كشفت عن تحديات نحو الحزب الشيوعي . وبنتيجة التضخم ، اتخذت الاضرابات خطوات ، تهدد بتحويلها إلى إضراب عام شامل ، كما كان الوضع عام 1905 أو " كما في بولونيا عام 1980 " . وفي ضوء أنباء حديثة ، علم أن شرطة لينغراد كادت تعلن حالة الإضراب . وباختصار نقول : لقد تكلم الشعب : إنه يريد الديمقراطية . ليس الديمقراطية الاشتراكية ولا أي ديمقراطية . بل الديمقراطية التقليدية الحقيقية للجميع .

****

ومما يدعو إلى سخرية الأقدار أن غورباتشيف كلما زاد ظهور الفشل في سياسته الداخلية ، تعاظم نجاحه في الخارج وزاد ادهاشاً ، وهذا يدعو إلى الافتراض بأن الديمقراطيات الغربية ستكون أعظم انتشاءً وسعادة حين ترى الشيوعية الملعونة قد تحولت إلى هباء . لكن الواقع غير ذلك ، فالغربيون موجودون في الجانب السيء من

الحاجز، ذلك أن الغربيين أعادوا نفخ النظام السوفياتي المفلس بفضل مليارات الدولارات والمساندة الدبلوماسية . إذ ليس المقصود فئة اليسار الأمينة أبداً على الرايات الحمراء للاشتراكية ، بل هم المحافظون فيه الذين يبذلون كل جهد ممكن بالحفاظ في الاتحاد السوفياتي على ما يلقون به ويرفضونه بكل حظم في بلادهم . ها هم أولاء أكثر حماسة من شرطة لينغراد أنفسهم في مساندة غورباتشيف في مقاومته للقوى الديمقراطية التي تتزايد أكثر فأكثر .

****

الحقيقة ، أن الانفراج الحالي قد أعطى ألوفاً من المكافحين السوفيات من أجل الحصول على حقوق الإنسان أو الحقوق الوطنية ، شعوراً بأنهم متروكون ، هذا إذا لم يكونوا مخدوعين ، من قبل الغربيين الذين يعتبرونهم من الأبطال ، بينما الملايين من أنصارهم في كل البلاد في حالة ضياع .

هؤلاء المكافحون السوفيات استمعوا على امتداد سنوات إلى الكثير من الكلام الرنان ، الذي كان لا يكاد يسمع في بعض الأوقات بسبب التشويش . وهو الكلام الذي طالما تحدث عن " صليبية الديمقراطيات " وعن "المدينة المشعة " تلك التي وضعت أمام الحواجز من قبل " امبراطورية الشر " .

لقد كانوا أشبه بالأطفال الجياع أمام واجهة مطعم مترف ، ممن لا يسعهم إلا الصلاة بانتظار حدوث معجزة . وأخيراً ، أتيح لهم نصف حظ للدخول اليه في الوقت الذي يستعد فيه الملايين من مواطنيهم الذين خرجوا من سبعين عاماً من الخمول والبلادة والرعب في محاولة للدخول بدورهم ، وهنا يشعرون أن الغربيين على وشك أن يبيعوهم وأن يراهنوا على تعددية غورباتشيف الاشتراكية .

****

وعندما توقف التشويش الإذاعي استطاعوا أن يسمعوا رونالد ريغان البطل الأكثر شعبية للحرية في الاتحاد السوفياتي يمتدح غورباتشيف " من أجل عودته إلى الجذور اللينينية " .. كما سمعوا مارغريت تاتشر ، السيدة الحديدية، التي أعلن حديثا عن أنها " سيدة العام " في الاتحاد السوفياتي ، تصف التخلي عن " الشيوعية العجوز" بأنه تحول تاريخي ، كما لو أنها اعتنقت بصورة مفاجئة الاعتقاد بوجود ليبيرالية شيوعية . بل أكثر من ذلك فإنها وهي متوجهة إلى جمهور المستمعين السوفيات عبر قناة ب . ب . س الناطقة باللغة الروسية ، أعلنت أن مؤتمر الحزب الشيوعي المنعقد عام 1989 م هو حجر الأساس الأول " لحرية المناقشة " ما دام أن الذين كانوا يعتلون المنبر لا يقرأون دائماً ما سجلوا من الملاحظات بل يقولون في بعض الأوقات ما تحفل به قلوبهم . أما من بقي من أهل البلاد أي نسبة 92 في المئة . ممن ليسوا أعضاء في نادي الكبار المغلق جدا ، فقد كانت

تغمرهم مشاعر فرحة كبيرة وهم ينظرون متأملين إلى الوليمة الحافلة على شاشة تليفزيوناتهم . والسيدة تاتشر راحت تضيف الإهانة إلى الازدراء ، حين دعت القوميات المختلفة الى الالتزام بالولاء الصادق نحو الاتحاد السوفياتي ، " وطن القوميات " والاكتفاء بالقليل المزيد من الحريات الدينية والثقافية على طريقة القبائل المختلفة في نيجيريا . وهذا بالطبع ، وأقسم على ذلك ، قد أدخل الراحة إلى نفوس الليتوانيين واللاتغيين والايستونين لأنه أكد لهم أن الاتحاد السوفياتي لا يزال " امبراطورية الشر! ".. وليس الكومنولث ، وأن أكثر الحكومات الغربية ومنها حكومة السيدة تاتشر لم تعترف أبداً بإلحاق بلاد البلطيك ..

قد يقال أن ما ورد على لسانها هو كلمات تمليها الضغوط الدبلوماسية ، لكن الأفعال كانت أكثر ازعاجاً أيضا .

وفي أكتوبر من عام 1988 م عارضت الحكومتان البريطانية والأميركية عقد مؤتمر دولي لمناقشة حقوق الإنسان في موسكو ما دام أن السوفيات لم يفوا بما تعهدوا به . بل أن السيدة تاتشر ذهبت إلى أبعد من ذلك إذ أعلنت أنه سيكون " خيانة لأولئك النساء والرجال الشجعان الذين يكافحون للحصول على حقوقهم في الاتحاد السوفياتي وفي أوروبا الشرقية " وقد حدثت هذه الخيانة فعلاً بعد ذلك بشهرين اثنين .

****

هناك من يتساءل : لماذا نشجع الإصلاحيات في أفريقيا الجنوبية بفرض العقوبات لا بتقديم القروض . ولماذا لا نخطط لعقد مؤتمر حول حقوق الإنسان في ببريتوريا . وبخاصة لماذا يجب أن تمزق الأبارتيد وأن تقرر حقوق السود مرة واحدة ، بينما نوافق على إصلاحات الشيوعية خطوة خطوة ؟ هذا مع العلم أن أمة يمتد وراءها ألف سنة من التاريخ أقدر على التكيف للديمقراطية من بعض القبائل الأفريقية . إن الجواب على هذا التساؤل لا يلبث أن يقفز أمام العيون أن أفريقيا الجنوبية لا تشكل تهديداً أبدا . ومهما تكن المبررات ، فإن فرحهم بما يجري في الاتحاد السوفياتي لا يكاد يخفى خفوهم بكل بساطة : " علينا ألا ندفع السوفيات إلى اليأس ! ".. إن صورة الحيوان الجريح ، وقد وضع ظهره إلى الجدار ، وشاع في جسده الرعب، هي من القوة بحيث تشل عقولنا وتمحو ذاكرتنا . ونحن نميل إلى نسيان أن كل هذه الجراح هي إرادية ، وأن هذا اليأس يعود إلى عدد من العقود ، وبصورة خاصة أن هذا وتلك رغم كل جهودنا المبذولة للحيلولة دون الاحتضار ، أمر لا سبيل إلى تجنبه . إن كل أموال العالم لا تكفي لتحريك الاشتراكية وإصلاحها . كما أن رجال الاتحاد السوفياتي لا يبدو أنهم مستعدون للعمل برأي مارك توين واحتياز حقوق دستورية والاحساس الجيد بعدم استخدام هذه الحقوق .

****

إن النظام السوفياتي على وشك الانهيار رغم كل مساعدات الغرب . فلماذا إطالة احتضاره وتوريث هذه المعضلة لأولادنا من بعد وربما يكونون أقل قدرة على التعامل معها؟ . على أننا على الأقل لا نزال نملك الأوطان. فليس أصعب من اختيار الفترة الأسوأ لمساندة النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، ليس فقط أن مئات من سجناء البيريستويكا لا زالوا وراء القضبان الحديدية ، ولكن يوجد كثيرون غيرهم ممن يوشكوا أن يتلمسوا سجون الغلاسنوست .

ففي نهاية عام 1988 م ، كان القادة السوفيات قد أدركوا أن إصلاحاتهم قد أجهضت ، واستعدوا لمواجهة النتائج . إن الإصلاحات الأكثر فاعلية من مثل " تحرير الأسعار" أو الاجراءات الهادفة إلى إلغاء المركزية قد تم تعليقها . فقد وضعت قوانين جديدة لذلك بصورة مستعجلة ، منعت حرية الاجتماعات ، وقيدت حرية الصحافة ، وحددت نشاط التعاونيات ، وبخاصة أناطت بالجيش صلاحيات رجال الشرطة . وقد ترتب على ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الغرب يتساءل عن إمكانية التراجع عن الغلاسنوست كان غورباتشيف يصدر تلك القوانين ..

****

ولما ظهر أن هذا كله لم يوقظ الغرب ، فإن الأحكام العرفية قد أعلنت في أرمينيا في الوقت نفسه . إن غورباتشيف وقد استغل بسخرية ظاهرة صدمة الزلزال بادر إلى إلغاء لجنة كاراباخ كلها ، من أعضائها اثنان في مجلس السوفيات الأعلى في أرمينيا ، ومع ذلك فقد ابتلع العالم هذا كله . وفي حدود ما أعلم لم تصدر كلمة واحدة في فيينا لصالح هؤلاء الرجال الشجعان . فمن عساه يقيم أي وزن لمتطرفين ضائعين في حبالهم البعيدة ؟ وبدلاً من ذلك ، فإن العالم الغربي أقدم على إرسال هباته إلى الاتحاد السوفياتي ، والتي لم يصل شيء منها إلى أرمينيا كما جاء في اعترافات الصحافة السوفياتية .

ثم جاء دور جورجيا حيث بسبب من الكوارث الطبيعية فإن مئات من المتظاهرين الوادعين قد قطعت أجسادهم بالمعاول والرفوش من قبل وحدات " سبت ناز " وأبيدوا مسممين بالغازات القاتلة ، أو سحقوا تحت عجلات الدبابات وأرغموا على الصمت بقانون الأحكام العرفية . هذا النوع من العلاج السريع والعنيف بدا فعالاً وناجحاً . وهكذا تم العثور على أكباش المحرقة في مجموعة من الأبرياء المحليين جرت التضحية بهم على مذبح الغلاسنوست، أما الغرب فقد تنفس الصعداء وهكذا لم تجد الحكومات الديمقراطية كلمة واحدة تقولهم لصالح

هذه الضحايا. فهي لم تشجب هذه المذبحة . وبدا العكس إذ شعرت بالخوف من أن هذا الحادث المؤسف قد يزلزل مركز غورباتشيف ويهدد سلامة البيريسترويكا . أما فيما يتعلق بالجيورجيين ، ما الذي يهم من هؤلاء المهيجين المزعجين الذين يطالبون بأشياء غريبة شاذة من مثل الديمقراطية والاستقلال الوطني .

****

وفي وسعنا أن نتساءل عما إذا كان القادة الغربيون يؤمنون حقاً ببراءة غروباتشيف أو أنهم يعرفون كثيراً غير ذلك لكنهم يؤثرون الاحتفاظ بأفواههم مغلقة مخيطة . إن عليهم أن يعلموا بواسطة خبرائهم العسكريين بأن وحدات " سبت ناز " هي الوحدات الوحيدة من الجيش التي دربت على القتل بالرفوش والمجاريف والتي لا يمكن أن تتدخل في قضايا داخلية دون أمر صادر عن القمة ، وهي تماماً شبيهة بوحدات س . أ . س في بريطانيا . إنها تشكل قوة استراتيجية تماماً كالقوة النووية ..

فما عسى الأميركيون والانجليز يفعلون فيما لو أن القيادة قد أنيطت يوماً بقائد مغمور محلي من سيبيريا بعد غارة نووية على أراضيهم ؟ هل في وسعهم أن يبتلعوا مثل هذا الحادث ؟

ما الذي يصيب القادة الغربيين ؟ لماذا يتصرفون على صورة شخصية في رواية كلاسيكية من القرن الثامن عشر ؟ أي على صورة مراهق مأخوذ عن نفسه يرثي لأمه لأنها قد أنهكت وفقدت قوتها من التعب بسبب من جلدها لأبيه ؟ إنهم لا يبدون أي اهتمام ولا يحسون بأي عاطفة طيبة نحو الديمقراطيين الذين يذبحون . هل تعرضوا لسموم ما يسمى فيروس الكرملين ؟ وهل يصدقون حقاً بجدية طاولة " المحافظين " الذين يقتتلون ؟

في وسعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات في حلقة قادمة بحيث نستبين بعض ما يجري وراء الستار الجديد الذي يسد له القادة السياسيون في الاتحاد السوفياتي .